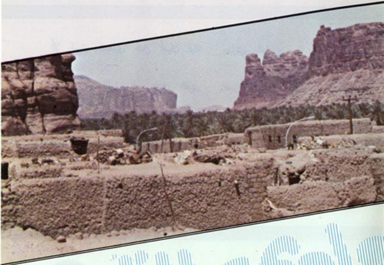

# وادي القرى

## المفهوم .. والمسمّى

الأستاذ أحمد عبدالله عبد الكريم

**ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة     بوادي القرى إني اذاً لسعيد**
**-جميل بثينة-**
**ولقد أجر الذيل في وادي القرى     نشوان بين مزارع ونخيل**
**-جميل بثينة-**
**مررنا بوادي القرى ضحوة     ودسنا به المهمه الأغبرا**
**فأمطرنا الله ذاك النهار     فكان قرانا بوادي القرى**
**-صلاح الدين الصفدي-**
**رأيت قرى وادي القرى في مسيرنا     وبنيانها طوب ومن فوقه حجر**
**-أحمد بن حجلة-**

هذا بصيص من الضوء يسلط على **وادي القرى** الذي لم يحظ كما حظى غيره من الأمكنة التي تضارعه في الشهرة والقدم أو تأتي دونه .. لم يحظ بعناية واهتمام الدارسين والمحققين الذين أماطوا اللثام عن كل موضع ومسحوا الغبار عن وجه كل قديم من الأمكنة ذات الشهرة التاريخية والمنزلة الأثرية في شتى أنحاء مملكتنا المعمورة .. العامرة بالخيرات وعتيد الحضارات، فكانت هذه المواضع التي صقلتها أقلام البحاث وفحصتها بحوث المحققين ناصعة الجبين أمام كل قارئ مطلع ودارس ينشد الحقيقة ويبحث عن الصواب.

إلا أن **وادي القرى** لم ينل قسطاً من هذه الدراسات ولم يفز بنصيب من هذه التحقيقات التي تغربله وتصفيه وتجلو عنه كل ما يمكن أن يكون غامضاً في مفهومه أو مدلوله أو مسماه، فكان عزوف الأقلام عن إسالة مدادها في تمحيصه وصدود ذوي اللب عن تحقيقه وتدقيقه ـ

يستوي في ذلك القديم منهم والحديث ـ سبباً في أن يظل ملتفاً برداء الغموض ومتلفعاً بأثواب يختلط فيها الأمر على الناظر غير المدقق الفاحص.

**ولهذا** .. وعلى الرغم من الشهرة التي يتمتع بها والمكانة الأثرية والحضارية التي يتبوؤها وادي القرى لم يأت في كتب المتقدمين عنه إلا إشارات من الضوء خافتة، ونتف من الأخبار يسيرة لا تروى ظمأ ظامئ ولا تبل غليل صاد إلى معرفةٍ أكثر وتفصيلات أوسع وأدق تريح النفس وتثرى الفكر بما يود المرء معرفته والوقوف عليه. وكم كنت أتمنى على كتابنا المحدثين وبحاثنا المكرمين أن يكون وادي القرى: ميدان جميل وبثينة في حبهما العذري ذو الخصب الحضاري بآثاره الشهيرة العتيقة وخصبه الزراعي من عهد عاد .. ميداناً من ميادين نشاطهم الفكري واهتماماتهم العلمية؛ ولكن الأنظار لما تتجه إليه بعد، وأرجو ألا تطول حتى تحين منها الالتفاتة .. فتشبعه بحثاً وذكراً حتى يكون في عداد المعارف لا في زمرة النكرات.

**أقول هذا** .. لأنني ممن يعيش في أحضان هذا الوادي كما عاش السابقون من قبل. وكل إنسان شغوف بالأرض التي أول ما سقط عليها رأسه ونبت عليها جسمه وخطت على ثراها قدمه أن يلم بأحوالها ويبلو أخبارها ولو من باب «العلم بالشيء خير من الجهل به» .. ولذلك وجدتني أتزود منها فيما يقع في يدي من كتب قديمة وحديثة علني أجد ما يسد حاجتي من المعرفة بها والتعرف عليها .. غير أن الحقيقة لم تسفر عن وجهها إلا يسيراً والأمر بالنسبة لي لا يزال في دائرة الظل ولم تشرق عليه شمس البيان.

**وأحسب أن أول من فتح النافذة على وادي القرى من الكتاب المحدثين فبدت معالمه وأصبحت الرؤية إليه ممكنة والأمل في التعرف عليه أصبح معقوداً ـ هو ذلكم الشيخ حمد الجاسر الذي كتب مقالاً في مجلة العرب عدد رمضان وشوال ١٣٩٧ هـ عن العلا إثر رحلته إليها مع فريق من العلماء في ذلك العام فكان بحثه ذاك بمثابة المعالم التي ترسم في الطريق لإرشاد السالكين إلى غاياتهم** .. فاستفدت منه كما استفاد غيري .. وفتح باباً من المعرفة يهدي إليه ويدل

عليه. وللقارئ الكريم أضع بين يديه خلاصة تاريخية لوادي القرى حسبما وصل إلى علمي وانتهى إليه فهمي .. وأنا بهذا العرض أنشد الحقيقة وأستمطر الآراء عليها تغرق أرضه بوابل من البحوث المستفيضة والآراء المستنيرة ليكون الوادي بها خصباً فكرياً كما هو خصب طبيعي.

## غموض في تحديد موقع الوادي :

**لعل** الغموض في تحديد موقع وادي القرى تحديداً دقيقاً نستشفه من كلام المؤرخين ومحققي المواضع مثال ذلك:

**قال ياقوت في معجم البلدان**: وادي القرى بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى، وقال أبو عبيدالله السكوني : وادي القرى والحجر والجناب بين الشام والمدينة يمر بها حاجّ الشام.

**وقال السمهودي في وفاء الوفاء**: وادي القرى ـ واد كثير القرى ـ بين المدينة والشام. وقال الحافظ بن حجر: هي مدينة قديمة بين المدينة والشام.

**وقال الفيروز أبادي في المغانم المطابة**: وادي القرى واد كبير من أعمال المدينة كثير القرى بين المدينة والشام.

**وجاء في فتوح البلدان للبلاذري**: وادي القرى بين المدينة والشام من أعمال المدينة.

فمن هذه النصوص يتضح عدم الدقة في تحديد وادي القرى، فقد جعلوه بين المدينة والشام .. والمدينة المنورة معروفة وهي أشهر من نار على علم، وأما الشام فالذي يتبادر إلى الذهن أنه الديار الشامية التي تبدأ من حدود الأردن تقريباً أو ما يطلق عليه بادية الشام، ويبدو واضحاً البون الشاسع ما بين المدينة وبادية الشام. ولكن المسافة هذه قد يقصر مداها إذا علمنا أنهم كانوا قديماً يطلقون الحجاز على المنطقة التي تقع دون وادي القرى إلى المدينة، ومن وادي القرى فما وراءه شاماً. ويمكن إدراك ذلك من رواية في وفاء الوفاء تقول: فلما كان عمر أخرج يهود

## • غموض شامل لدى المؤرخين في تحديد موقع وادي القرى.

## • الوادي .. مزرعة حضارات.

خيبر وفدك ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى لأنهما داخلتان في أرض الشام ـ ويروي أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز وأن ما وراء ذلك من الشام.

**ولكن الحجاز كما ورد تحديده في المراجع المشار إليها آنفاً وفي صفة جزيرة العرب أيضاً ـ يبدأ من أقصى اليمن جنوباً حتى أطراف بادية الشام (الأردن) تقريباً ففي المغانم المطابة: عن سعيد بن المسيب أنه قال: ان الله تعالى لما خلق الأرض مادت فضربها بهذا الجبل ـ يعني السراة ـ وهو أعظم جباله وأذكرها فإنه أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام فسمته العرب حجازاً لأنه حجز ما بين الغور وبين نجد ومبدأه من اليمن حتى بلغ الشام فقطعته الأودية..».**

**فأين موقع وادي القرى من هذا الحجاز إذن؟**. الموقف لم يتضح بعد ولكن عندما نستقرئ النصوص التالية مثل:

**والحجر:** قرية على يوم من وادي القرى بين جبال وبها كانت منازل ثمود بيوتها في أضعاف جبال تسمى الأثالث. (في المغانم المطابة، وفاء الوفاء).

**وفي معجم البلدان:** وادي القرى والحجر والجناب منازل قضاعة ثم جهينة وعذرة وبلي بين الشام والمدينة يمر بها حاج الشام وهي كانت قديماً منازل ثمود وعاد.

**عندما نستقرئ مثل هذه النصوص نعرف أن الحجر الذي هو ديار ثمود وعاد (مدائن صالح) المشهور به حاليًا يقرب من وادي القرى ..** وقد سبقت الإشارة إلى أن الحجر قرية على يوم من وادي القرى. كما أورد ابن جرير في تفسير سورة الأعراف عن ابن اسحاق في الكلام على قوم ثمود: وكانت منازلهم الحجر إلى قرح وهو وادي القرى وبين ذلك ثمانية عشر ميلاً(١).

وعلى هذا فالحجر المشهور اليوم بمدائن صالح هو على مقربة من وادي القرى وبينهما ثمانية عشر ميلاً أو مسيرة يوم.

## مفهوم وادي القرى :

**ولكن هل وادي القرى هو واد بمعنى الكلمة أم هو مسمى يطلق على موضع في الوادي لذاته؟**. في الحقيقة أن وادي القرى هو واد حسبما تعنيه الكلمة ونسب إلى القرى لكثرة القرى التي نشأت على ضفافه حتى اشتهر بوادي القرى؛ ويؤيد ذلك ما أشار إليه ياقوت في معجمه من أنه واد من أعمال المدينة كثير القرى، وقال أيضاً: هو واد فيه قرى كثيرة وبها سمي وادي القرى. وقال أبو المنذر: **سمي وادي القرى لأن الوادي من أوله إلى آخره قرى منظومة.**

**أما سيل هذا الوادي فيتكون من عدة روافد،أولها يسمى مرارة مقابل مكان يدعى الأقرع يبعد عن الحجر شمالاً بنحو ستين كيلاً ثم الروافد:** غارب، حوضا، ثربا، شلال وكلها تنحدر من حرة العويرض التي تقع غرب الوادي ويفيض السيل ماراً بالحجر فالعذيب فالعلا فقرية مغيرة جنوباً فقرية الخشبية حيث يلتقي بسيل وادي الجزل ثم يفيضان معاً حتى يلتقيا بوادي اضم (**الحمض**) حيث تتجه الثلاثة غرباً لتصب في البحر الأحمر جنوب مدينة الوجه، وعلى هذا فمهوم وادي القرى يشمل المنطقة من الحجر شمالاً إلى جنوب قرية مغيرة مروراً بالعلا وما جاور هذا الامتداد على مسافة تقدر بستين كيلومتراً.

ولكن قد ينحسر هذا المفهوم ليعنى موضعاً بعينه في هذه المنطقة وعلى امتداد هذا الوادي .. وإذا ما تتبعنا أقوال المؤرخين رأينا ذلك واضحاً .. وهذا جانب من أقوالهم:

**فالسمهودي والفيروز أبادي** قد ذكرا أن الحِجر قرية على يوم من وادي القرى والحجر كما مر آنفاً أنها إحدى القرى الواقعة على مسيرة وادي القرى.

وقرية الرحبة إحدى قرى وادي القرى أيضاً يقول عنها السمهودي الرحبة: كرقبة بلاد عذرة قرب وادي القرى، كذلك ياقوت يقول عن الرحبة إنها قريبة من وادي القرى.

**أما سقيا الجزل** وهي إحدى قرى وادي القرى والواقعة على ضفافه **فيقول ياقوت**: قال يعقوب سقيا الجزل من بلاد عذرة قريب من وادي القرى. وقال السمهودي عن سقيا الجزل أيضاً إنها قرب وادي القرى.

**ومن هذه القرى المذكورة آنفاً** ما يقع في أول الوادي كالحجر ومنها ما يقع في نهايته كقرية سقيا الجزل جنوباً .. ومن هذه الأقوال يتبين أن وادي القرى إنما يطلق على موضع بعينه وبالأحرى على قرية بذاتها من قرى هذا الوادي دون سائرها.

**وفي الواقع أن وادي القرى لما كان كثير القرى** فغالباً ما تشتهر قرية من هذه القرى بمميزات تمتاز بها عن سائرها فتكون قاعدة لها وبلفظ آخر عاصمتها فتأخذ الاسم وتشتهر به، وإذا ذكر فإنما يعنى هذه القرية بالذات. وعندما نستعرض تاريخ وطبيعة قرى وادي القري نجد أن هناك قرية تمتاز بطبيعة جغرافية أولاً وبطبيعة اجتماعية ثانياً جعلها تحتل الصدارة على قرى الوادي وتكون بحق قاعدة له أو قصبته كما يقال، والمؤرخون قد أشاروا في كتبهم إلى القرى المشهورة في وادي القرى، فمن هذه القرى: قرية (المابيات) كما تعرف في الوقت الحاضر و(**الرحبة**) قديماً .. وهذه القرية عرفت في صدر الإسلام بمدينة صالح. ولنستمع إلى ابن ناصر الدين في مسودة (**توضيح المشتبه**) يقول عنها: ومداين صالح التي بالقرب من العلا بلد إسلامي وصالح المنسوبة

إليه من بني العباس بن عبد المطلب تاريخها بعد الثلاثمائة. وفي كتاب الروض المعطار: هي مدينة عامرة كثيرة النخل والبساتين وبها ناس من ولد جعفر بن أبي طالب⁽٢⁾.

**وهذه قرية سقيا الجزل** وهي من القرى المشهورة في الوادي وتسمى أيضاً سقيا يزيد وسقيا بني أمية يقول عنها البشاري إنها أحسن مدن هذه الناحية والنخيل والبساتين متصلة من قرح إليها⁽٣⁾.

**ومن القرى الشهيرة أيضاً في وادي القرى:** قرية قرح .. ولنستمع إلى أقوال المؤرخين في وصفها:

**يقول الفيروز أبادي في المغانم** .. قرح: اسم لسوق وادي القرى وقصبتها من أعمال المدينة من ناحية الشام وكانت من أسواق العرب في الجاهلية .. وقيل بهذه القرية كان هلاك عاد.

**وقال السمهودي في وفاء الوفاء** .. قرح: سوق وادي القرى وكان به سوق في الجاهلية .. وقيل بهذه القرية كان هلاك عاد .. وقال عبدالله بن رواحة:

**جلبنا الخيل من آجام قرح    تغر من الحشيش لها العكوم**

وقال ياقوت في معجمه .. قرح: هو سوق وادي القرى وكانت من أسواق العرب في الجاهلية. قال السدى: قرح سوق وادي القرى وقصبتها وقيل بهذه القرية هلاك عاد.

**أما المقدسي فيقول عن قرح في كتابه أحسن التقاسيم** «وناحية قرح تسمى وادي القرى وليس بالحجاز اليوم بلد أجل وأعمر وآهل وأكثر تجارة وأموالاً وخيرات ـ بعد مكة ـ من هذه عليها حصن منيع على قرنته قلعة قد أحدقت به القرى والتفت به النخيل ذو تمور رخيصة وأخبار حسنة ومياه غزيرة ومنازل أنيقة وأسواق حارة عليه خندق وثلاثة أبواب محددة. ثم يقول وهو بلد شامي مصري عراقي حجازي⁽٤⁾.

**تلك هي القرى المشهورة في قرى الوادي .. وقد مر معنا وصف كل قرية منها حسب وصف المؤرخين القدامى لها. ولو عدنا لتاريخ وجغرافية كل من قرية الرحبة وسقيا الجزل لوجدناهما حديثتي الانشاء؛ فكلتاهما أنشئت في صدر الإسلام ولم تلبث كل منهما أن هجرت وأصبحت أثراً بعد عين.**

● ● ● ●

ومن الناحية الجغرافية فكلتاهما تقع على ضفاف الوادي وفي براح من الأرض ومساحة القرية لا تتجاوز الكيلوين في مثلها من الأمتار وهي بهذا لا تنطبق عليها صفة الوادي.

**أما القرية الثالثة** قرح فتاريخها قديم جداً وقد أشير إلى أن هلاك عاد كان فيها **(والمقصود بهم ثمود)** لأن عاداً قوم هود بالأحقاف، وبأنها كانت من أسواق العرب في الجاهلية (أي قبل الإسلام)، وأنها كانت سوق وادي القرى وقصبته ـ هذا قبل الإسلام .. وفي العهد الإسلامي ليس بالحجاز بلد أجل وأعمر وآهل وأكثر تجارة وأموالاً وخيرات ـ بعد مكة ـ منها، فهي إذاً من الناحية التاريخية والاجتماعية والاقتصادية تبز هاتين القريتين وما عداهما من القرى وتتقدم عليها .. ومن الناحية الجغرافية فهي تقع بين جبلين عاليين يمتدان من الشمال إلى الجنوب بمسافة تقرب من عشرين كيلومتراً يتركان بينهما أرضاً سهلية يتراوح عرضها ما بين ثلاثة كيلو مترات في أضيق مكان وأربعة كيلومترات في أقصى اتساع وفي وسط هذا السهل يشق السيل طريقه آتياً من الشمال ومتجهاً إلى الجنوب .. وهذا السهل بهذا التحديد يحتوي باطن أرضه على ثمانين عيناً من عيون الماء الجارية كما وردت بذلك رواية في معجم البلدان لياقوت بما يشير إلى غزارة الماء فيه وهو ذو تربة جيدة استغلت في الزراعة منذ القِدَم. ومن الناحية اللغوية فإن صفة الوادي تنطبق على أرض قرح تمام الانطباق .. فالوادي كما جاء في لسان العرب والقاموس المحيط يعني المفرج ما بين جبال أو تلال يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً. وأرض قرح على هذا المعنى هي واد

لأن الجبال تقوم على جانبيها متصلة بدون انقطاع تسمح للسيل بالمرور من الشمال حتى الجنوب كذلك للسالك فيه ليس له منفذ إلا من جهتيه الجنوبية والشمالية فقط.

**وعلى هذا التأسيس** فقرح هي وادي القرى، لأنها أولاً ذات بيئة جغرافية وطبيعية تستحق بها لقب الوادي، ولأنها ثانياً أكبر قرى الوادي وأقدمها في الإنشاء والعمران، ولأنها ثالثاً تتبوأ الصدارة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية وكل هذه العوامل ترشحها لأن تأخذ اسم الوادي وتشتهر به ويكون علماً عليها. فإذا ما قيل وادي القرى إنما يعنى الوادي الذي تقع فيه قرية قرح بالذات، ولكن هذا لا ينفي أو يمنع من أن تكون المنطقة القريبة والمحيطة بهذا الوادي أن تقع تحت هذا المسمى وفي نطاقه على وجه العموم .. لا سيما إذا علمنا أن قرية قرح هذه كانت ناحية من النواحي الإدارية في العصور الإسلامية الأولى أي بالتعبير الحديث منطقة إدارية. والمنطقة أو الناحية لا بد وأن تشمل عدداً من القرى وتسمى الناحية أو المنطقة بأكبر قرية فيها أو أشهرها، وقد مر معنا أن قرحاً ناحية وادي القرى ومن أعمال المدينة، والأعمال واحدها عمل والعمل في الاصطلاح أشبه بالإقليم يتراوح حجمه بين أكبر الأقسام الإدارية وأصغرها .. والإقليم على ما عرفه ياقوت في المعجم حسب الاصطلاحات ومنها اصطلاح العامة وجمهور الأمة وما هو جار على ألسنة الناس دائماً: هو كل ناحية مشتملة على عدة قرى [ وبالتالي فإن لكل ناحية مدينة تجمع اسمها ] كما أشار إلى ذلك ياقوت في قوله عن الكورة بأنها كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها كقولهم: دارا بجرد، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة دارا بجرد، وكذلك ما أشبه ذلك (٥).

**وقرح أخيراً وليس آخراً ناحية نفيسة أو هي (منطقة مهمة)** من نواحي أو مناطق الحجاز تبعاً للتقسيم الإداري والمالي في الدولة الإسلامية ونستشف ذلك من تقسيم المقدسي لجزيرة العرب من النواحي الإدارية حيث قسمها إلى أربع كور جليلة وأربع نواح نفيسة .. فأما الكور فهي:

الحجاز واليمن وعمان وهجر، وأما النواحي التي تضاف إلى هذه الكور **فهي**: **الأحقاف** والأشجار وهما ناحيتان مضافتان إلى كورة اليمن، واليمامة وهي مضافة إلى كورة هجر، وقرح (وادي القرى) وهي مضافة إلى كورة الحجاز(٦).

**وعند كلام المقدسي على كورة الحجاز** جعل مكة مصر هذه الكورة وقصبتها **وأما أمهات المدن في هذه الكورة لمن أهمها**: يثرب. ينبع. ناحية قرح. خيبر. المروة. الحوراء. جدة. الطائف. الجار. السقيا. العونيد (ساحل قرح) الجحفة. العشيرة(٧).

**ومن كل ذلك** يتضح لنا أهمية قرح التي تشتهر بوادي القرى من كونها ناحية نفيسة من نواحي جزيرة العرب وأنها من أمهات المدن وأهمها في منطقة الحجاز .. ومن كل ذلك أيضاً يتضح لنا أهمية مدينة قرح في قرى وادي القرى الأمر الذي جعلها تعرف باسم وادي القرى وتشتهر به.

• • • •

## مدينة العلا هي وادي القرى:

**ومما تقدم يبدو واضحاً أن مدينة العلا الحالية والتي تنحصر بين الجبلين العاليين من شرقيها وغربيها وأرضها تمتد بين هذين الجبلين من جنوب قرية العذيب شمالاً** حتى قبيل قرية مغيرة جنوباً على مسافة تقدر بعشرين كيلومتراً ـ هي ما كانت تعرف قديماً بوادي القرى؛لأن مدينة قرح تقع في نطاق هذه المسافة وتقع في الجزء الشمالي منها.. ولنستمع إلى الشيخ حمد الجاسر وهو البحاثة الضليع حين يقول: ووادي القرى هو وادي العلا. ويقول: وادي القرى الوارد ذكره في كتب التاريخ والذي غزاه الرسول صلى الله عليه وسلم هو وادي العلا وكان أشهر سكانه قبيلة بني عذرة و(هو) من مواضع تلك القبيلة.ويقول: ويظهر أن لخصوبة أرضه وكثرة مياهه كثر سكانه وبلغوا درجة من التحضر بحيث أصبحوا خليطاً من الناس(٨).

**ولنستمع إليه أيضاً حين يقول** «لم أستطع الاهتداء إلى موضع قرح ولكني استنتج استنتاجاً من كلام المقدسي [الذي مر معنا في وصف قرية قرح] انه القسم الشمالي من مدينة العلا، فقد ذكر أن حصن البلدة على قرنته قلعة، وكما يفهم من ذكر مسجد قرح المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه علم بعظم وتقدم ذكر جامع العلا الكبير وأنه يسمى مسجد العظام، وفي الطرف الغربي من البلدة القديمة قلعة على جبل» استنتج من كل هذا أن بلدة قرح جزء من العلا شملها الآزاسم العلا. ويؤيد هذا ما أورده ابن جرير في تفسير سورة الأعراف عن ابن اسحاق ـ في الكلام عن قوم ثمود: وكانت منازلهم الحجر إلى قرح وهو وادي القرى وبين ذلك ثمانية عشر ميلاً. انتهى. ثم يقول الشيخ حمد: وهذا ينطبق على ما يعرف الآن باسم خريبة العلا وهي الطرف الشمالي من البلدة وتبعد عن الحجر بنحو ٢٥ كيلاً وهو يقارب ١٨ ميلاً، ثم يقول: ولهذا فاسم العلا شمل ما كان يعرف قديماً باسم قرح وكثيراً ما يحدث مثل هذا بحيث يسمى الموضع وما حوله باسم جزء منه فيطغى اسم ذلك الجزء على جميع الموضع وينسى ما عداه(٩).

● ● ● ●

**وابراهيم بن شجاع الحنفي من القرن السابع الهجري وصف العلا وصفاً يقرب من وصف المقدسي لمدينة قرح** .. قال: العلا أرض رمل أبيض بين جبلين عاليين ثم مضيق ثم وادي ونبات كثير وعيون ثم مدينة العلا وسط الوادي نخل كثير وتمر والمدينة صغيرة وبها قلعة صغيرة على رأس جبل صغير وعيون عذبة يزرع عليها ولها أمير ويودعون بها أمتعتهم(١٠).

**كما وصف العلا ابن فضل الله العمري بأنها إحدى مدن الحجاز** ماء جار ونخل وزرع يضرب بمفازتها المثل(١١).

**ومما يشير إلى مكانتها الاجتماعية والاقتصادية قول صلاح الدين الصفدي في رحلته إلى الحج حين يقول شعراً:**

**لما حـــجـــجت وحـــجتي    لم تـــرض مـــا بين الملا**
**أبصرت قـــدري خـــاملاً    لما دخـــلت إلى الـــعلا**

**ويقول:**

**خرجنا نحو طيبة من دمشقٍ    بـأفـئـدة لـلـقـياهـا حـرار**
**ولكن في العلا زدنا اشتياقاً    كـأن قـلـوبـنـا حشيت بـنـار**
**وأقرب ما يكون الشوق يوماً    إذا دنت الديار من الديار(١٢)**

وتأسيساً على ما تقدم يمكن القول بأن وادي القرى فيما يعنيه المؤرخون والرحالة في كتبهم هو ما يشمله الآن اسم العلا. ويمكن التدليل على ذلك برواية واحدة من جملة روايات ـ كما جاءت تلك الرواية في معجم البلدان لياقوت حيث يقول: وروى أن معاوية بن أبي سفيان مر بوادي القرى فتلا قوله تعالى «أَتُتْرَكون فيما ههنا آمنين، في جنات وعيون، وزروع ونخل» الآية. ثم قال: هذه الآية نزلت في أهل هذه البلدة وهي بلاد ثمود فأين العيون؟. قال له رجل: صدق الله في قوله، أتحب أن أستخرج العيون؟. قال: نعم. فاستخرج ثمانين عيناً، فقال معاوية: الله أصدق من معاوية.

**فهذا العدد الجم من العيون ليس في الحجر من بلاد ثمود إنما هو في العلا حيث أن الحجر لم يعثر في أرضه على عين واحدة وإنما الشرب والزراعة فيه يعتمدان على الآبار المحفورة..** ويؤيد ذلك بئر الناقة المنسوب لناقة نبي الله صالح عليه السلام حين استخرجها الله من صخرة صماء في الحجر آية لقومه وكان لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. وحين مر الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك بالحجر وكان جيشه قد استقوا ماء من آباره وعجنوا به العجين الذي عجن به للإبل وأمرهم ألا يشربوا إلا من بئر الناقة، ثم إن الانباط الذين استطونوا الحجر في القرن الأول الميلادي حفروا الآبار العديدة في الحجر للشرب والزراعة يؤيد ذلك الآبار الكثيرة التي يعثر

عليها السكان الحاليون للحجر يعيدون حفرها ويزرعون عليها وغالباً ما تكون هذه الآبار محفورة في الصخر من أولها إلى آخرها وكما يقول الآثاريون إن هذه الآبار تعود للأنباط.

**أما العلا** فإن جملة العيون التي استخرجها السكان المعاصرون أو آباؤهم خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين والتي نشاهدها نحن سكانها اليوم قد بلغت سبعاً وثلاثين عيناً منها عين واحدة تسمى (تدعل) فقديمة جداً حتى ليقال إن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه توضأ من مائها حين مروره بالعلا في غزوة تبوك .. يضاف إلى ذلك خمسة عيون تقريباً عمل فيها الأهالي لاستخراجها ولكن لم يقدر لها الحياة فتركوها .. فهذه إذاً اثنتان وأربعون عيناً .. واليوم يعثر الناس على الكثير من سريان العيون حينما يقومون بالعمل في حقولهم أو حفر الآبار العادية مما يشير إلى وجود ذلك العدد الوفير من العيون في أرض العلا كما جاءت به الرواية المشار إليها.

**فكل هذه القرائن ـ فيما يبدو لي ـ** تقف شاهدة على أن وادي العلا هو وادي القرى الذي يرد ذكره في كتب التاريخ كما يقول الشيخ الجاسر.

### وجهة نظر في تسمية وادي العلا بوادي القرى:

وإذا جاز لي أن أبدي رأياً فإن لي وجهة نظر حول إطلاق وادي القرى على وادي العلا المحدود بتلك المساحة التي ألمعت إليها فيما سبق .. ووجهة النظر هذه مستوحاة من النص الوارد في معجم البلدان لياقوت عند كلامه عن وادي القرى إذ يقول :

**ووادي القرى**: واد بين المدينة والشام .. فيه قرى كثيرة وبها سمي وادي القرى، قال أبو المنذر: سمي وادي القرى لأن الوادي من أوله إلى آخره قرى منظومة وكانت من أعمال البلاد، وآثار القرى إلى الآن بها ظاهرة إلا أنها في وقتنا هذا كلها خراب ومياهها جارية تتدفق ضائعة لا ينتفع بها أحد، قال أبو عبيدالله السكوت: وادي القرى والحجر والجناب منازل قضاعة ثم

جهينة وعذرة وبلى وهي بين الشام والمدينة يمر بها حاج الشام وهي كانت قديماً منازل ثمود وعاد وبها أهلكهم الله وآثارها إلى الآن باقية، ونزلها بعدهم اليهود واستخرجوا كظائمها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفاً وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل في كل عام ومنعوها لهم على العرب ودفعوا عنها قبائل قضاعة. وروى أن معاوية بن أبي سفيان مر بوادي القرى فتلا قوله تعالى «أتتركون فيما ههنا آمنين، في جنات وعيون، وزروع ونخل» الآية ... إلى آخر الرواية التي مرت سابقاً وفيها أن رجلاً استخرج فيها ثمانين عيناً.

* * *

**من هذا النص يمكن استخلاص الآتي:**

**١ ـ اطلاق كلمة الكثرة على قرى الوادي.**

**٢ ـ وصفها بأنها قرى منظومة من أول الوادي إلى آخره.**

**٣ ـ انها كانت قديماً منازل ثمود وعاد.**

**٤ ـ ان اليهود نزلوها واستخرجوا كظائمها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها.**

**٥ ـ ان أرض وادي القرى تحتوي على ثمانين عيناً.**

**فهذه** المستخلصات الخمسة كلها تنطبق مع واقع وطبيعة وادي العلا بالمسافة والمساحة التي ذكرت من قبل وهي عشرون كيلو متراً طولاً في عرض يتراوح بين ثلاثة إلى أربعة كيلو تقريباً.

**فلو** أحصينا عدد القرى الواقعة على ضفاف الوادي الذي ينبعث سيله من شمال الحجر حتى يلتقي بوادي الجزل جنوب قرية مغيرة العامرة منها الآن والطامرة لوجدناها لا تعدو الخمس عشرة قرية .. واعتقد أن هذا العدد من القرى الذي يتوزع على امتداد ستين كيلاً أو تزيد لا يمكن أن يطلق عليها صفة الكَثرة إلا تجاوزاً.

**ثم إن هذا العدد من القرى المنتشرةعلى طول وعرض تلك المسافة لا ينطبق عليه صفة القرى المنظومة من أول الوادي إلى آخره**؛ ذلك أن القرية التي تفصلها عن الأخرى مسافة خمسة أكيال ـ على اقل تقدير ـ تبدو أنها ليست منتظمة أو مرتبطة بأختها خصوصًا إذا عرفنا أن الغالبية من هذه القرى لا تتجاوز مساحة الواحدة منها الكيلين في مثلها تقريباً؛ أي أنها ليست قرى واسعة بحيث تمتد الواحدة حتى تلتقي أو تقرب من الأخرى،وأكبرها امتداداً هي العلا.

* * *

**ولكن وادي العلا** ـ وعلى احتوائه على ثمانين عينًا ـ يمكن أن تتشكل فيه القرى الكثيرة والمنتظمة من أوله إلى آخره .. ولا يعني أن الثمانين عيناً كلها تكون حية تسقي مزارعها في آن واحد ولكن تستخرج عيون ثم يموت البعض منها ويبقى البعض ثم يستخرج عدد من العيون آخر فيموت بعضه ويبقى على قيد الحياة البعض وهكذا على مر الأزمان. وكل عين تستخرج تنشأ عليها المزارع والبساتين وتبنى في البساتين البيوت للسكن مما يمكن معه أن يطلق على نطاق كل عين قرية. ومزارع هذه العيون أو قل هي القرى منتظمة مرتبطة آخذة برقاب بعضها فإذا ما انتهت مزارع عين بدأت مزارع العين الأخرى مباشرة لا يفصل بينهما إلا طريق ضيق للمارة (شارع) .. وهذه العيون بمزارعها تبدأ من بداية الوادي وتنتهي بنهايته فأولها عين العادلية من الشمال وآخرها عين (المزاحمية) في آخر الوادي وجملة هذه العيون والمعروفة لدينا اليوم العامر منها والدامر اثنتان وأربعون عيناً. ويشهد بما أشرت إليه من انتظام قرىالعيون بمزارعها وضع العيون الحالية؛ فإن مزارعها متجاورة الواحدة تلو الأخرى ومتسلسلة كأنها قافلة الجمال وفي وسط مزارع العين يفتح شارع يخترقها من أولها إلى آخرها وعلى جانبي هذا الشارع يبني أهالي العين بيوتهم كل في أرض مزرعته فتبدو المساكن متصلة على حافتي الشارع وعلى طولامتداده وهم يطلقون على مزارع كل عين بمساكنها قرية مثل قرية البركة وقرية الحمدية وهكذا.

**ثم إن وادي العلا كان مسكناً للثموديين كما كان الحجر فهم الذين حفروا العيون وزرعوا عليها الزروع والنخيل كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة في قوله تعالى مخاطباً ثمـود** «أتتركون فيما ههنا آمنين، في جنات وعيون، وزروع ونخل طلعها هضيم»⁽١٣⁾. وأرض الحجر كما عرفنا لا يوجد بها عيون بالمعنى المتعارف عليه. وقد أشار المؤرخون إلى أن هلاك قوم ثمود كان بوادي العلا مثل قولهم: قرح سوق وادي القرى وكان بهاهلاك عاد أو قوم ثمود .. والذي يبدو أن الثموديين الذين حل بهم عذاب الله وسخطه فأهلكوا بالصيحة كانوا في الحجر ولم يتنزل عليهم العذاب في العلا (وادي القرى) لأن رواية تقول بأن الصيحة أهلكتهم جميعاً إلا جارية كانت مقعدة فأطلق الله رجليها فأتت وادي القرى وأخبرتهم بما حل بقومها وطلبت ماء فشربت ثم ماتت⁽١٤⁾ .. أما ما يعنيه المؤرخون بآثارهم الباقية في قرح (وادي القرى والذي هو وادي العلا) يبدو أنهم يعنون قرية الخريبة بالعلا .. وهذه القرية حسبما تشير إليه البحوث الآثارية المعاصرة هي من آثار اللحيانيين الذين عاشوا في **وادي العلا** من بداية القرن الخامس إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد وأشادوا مملكة مترامية الأطراف كان على ما يبدو عاصمتها **(الخريبة)** وهي جزء من مدينة العلا حالياً⁽١٥⁾، فهي على هذا أثر لحياني وليست ثمودية.

**وقد نزل اليهود وادي القرى بعد أن أجلاهم بختنصر من بيت المقدس حيث يقول البلاذري في فتوح البلدان:** لما هدم بختنصر بيت المقدس وأجلى من أجلى وسبى من سبى من بني إسرائيل لحق قوم منهم بناحية الحجاز فنزلوا وادي القرى وتيماء ويثرب، وكان سكان وادي القرى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود حيث غزاهم سنة سبع وفتح البلاد عنوة وعامل اليهود فيها على نحو ما عامل عليه أهل خيبر. ولما نزل اليهود وادي القرى استخرجوا كظائمها وأساحوا عيونها.. والكظائم جمع كظامة وكظيمة .. والكظامة في اللغة كما جاءت في لسان العرب لابن منظور هي: بئر إلى جنبها بئر وبينهما مجرى في بطن الوادي وفي المحكم بطن الأرض أينما كانت. والكظامة قناة في باطن الأرض يجري فيها الماء. وجاء أيضاً .. الكظامة

كالقناة وجمعها كظائم .. قال أبو عبيدة: سألت الأصمعي عنها وأهل العلم من أهل الحجاز فقالوا: هي آبار متناسقة تحفر ويباعد ما بينها ثم يخرق ما بين كل بئرين بقناة تؤدي الماء من الأولى إلى التي تليها تحت الأرض فتجتمع مياهها جارية ثم تخرج عند منتهاها فتسيح على وجه الأرض.

**وعيون العلا كلها على هذا النحو من الوصف تحفر أول بئر ويقال لها في العلا باللهجة المحلية (بقيرة)** وبعد مسافة تحفر بقيرة أخرى وهكذا ثم تعمل قناة ما بين كل بقيرة وأخرى يقال لها **(سرب)** حتى يخرج ماء العين على وجه الأرض فيقال له **(مفرع أو مفجر)** العين وقد يطول سرب العين من أول بقيرة حتى المفرع لأربعة كيلومترات أو تزيد أو تنقص حسب منسوب الماء في باطن الأرض.

**ولهذه الدلائل** يبدو لي أن وادي العلا سمى بوادي القرى لكثرة ما يحويه من عيون كل عين تشكل قرية بذاتها مترابطة ومتلاحقة ومتلاصقة ببعضها الأمر الذي جعل هذا الوادي **(وادي العلا)** أن يوصف بوادي القرى .. وقد شمل اسمه هذا جميع القرى المحيطة به والقريبة منه لأنه هو الأكبر في هذه الناحية والأقدم والأعرق زراعة وحضارة وعمراناً وأغزر إنتاجاً وبالتالي أقوى اقتصاداً من سائر القرى الأخرى.

وخلاصة القول:

**ان وادي القرى هو الوادي الذي تشتمل عليه مدينة العلا الحالية. ولا ينصرف هذا الاسم في ذكر المؤرخين له إلى ما عداه .. غير أن القرى والمنطقة المجاورة له تندرج في هذا المسمى لقربها منه وتبعيتها له.**

**إن وادي العلا، الذي تشمله مدينة العلا الحالية، قد تسمى عبر تاريخه الطويل منذ أربعة آلاف سنة بأربعة أسماء هي على التوالي: ديدان ثم قرح ثم وادي القرى ثم العلا.**

**ولعلي بهذا العرض المتواضع أكون قد ألمت إلى تاريخ وادي القرى ذي الحضارات العريقة والعتيدة كحضارة الثموديين فحضارة الديدانيين فحضارة اللحيانيين فحضارة المعينيين فحضارة الانباط فالعصر الجاهلي فحضارة العصر الإسلامي وبهذه جميعها يكون الوادي مزرعة حضارات كما هو بحق مزرعة أغذية ويمكن أن يطلق عليه الوادي الخصيب على غرار الهلال الخصيب الذي أطلقه عالم الآثار «جيمس بريستد» على سوريا الطبيعية ولم يكن يقصد بالطبع الخصب الزراعي بقدر ما أراد الخصب في الحضارات القديمة(١٦) .**

## • المراجع المعتمدة في البحث •

١ ـ **المغانم المطابة في معالم طابة** للفيروز أبادي بتحقيق حمد الجاسر.
٢ ـ **وفاء الوفاء** للسمهودي حـ٤.
٣ ـ **معجم البلدان** لياقوت الحموي حـ١،
٤ ـ **فتوح البلدان** للبلاذري.
٥ ـ **لسان العرب** لابن منظور.
٦ ـ **القاموس المحيط** للفيروز أبادي.
٧ ـ **الآثار في شمال الحجاز حـ١** حمود بن ضاوي القثامي.
٨ ـ **مجلة الدارة العدد الأول س١**، العدد الثالث س٧.
٩ ـ **مجلة العرب** جـ٣، ٤ س ١٢.
١٠ ـ تفسير الخازن حـ٢.
١١ ـ **صفة جزيرة العرب**.. للهمداني.

### الهوامش

١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢ مجلة العرب.
(٥) معجم البلدان.
(٦، ٧، ١٥) مجلة الدارة.
(١٣) سورة الشعراء: الآيات من ١٤٦ ـ ١٤٨.
(١٤) تفسير الخازن.
(١٦) الآثار في شمال الحجاز (المقدمة بقلم الأديب الراحل محمد حسن عواد).